بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة 11 سبتمبر، أو المستحيل إذ صار ممكنا

مرت سنة على غزوة 11 سبتمبر المباركة، أول غزوة جهادية في العصر الحديث تقوم بقتال الكفار في عقر دارهم. وفي الحقيقة إن الإنسان ليعجز أن يتكلم عن هذا المجهود الجبار الذي أحيا آمال الملايين من أبناء الأمة في غد أفضل تحت ظل خلافة إسلامية عنوانها العدل والكرامة. لقد تبع هذا الإنجاز خلال العام المنصرم متغيرات كثيرة، وعصفت رياح كثيرة بالمسلمين، رفع بها الله أقواما ووضع آخرين. ولا شك أن ممن رفعهم الله المجاهدين في سبيله، في مقدمتهم المنفذون التسعة عشر للغزوة المباركة، وآخرون ممن يذبون عن الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، ويقارعون طاغوت العصر أمريكا.

لقد عززت الغزوة إيمان المسلمين بالله القوي العزيز، فلم يكن أحد يتصور - حتى في منامه - أن أمريكا القوة العظمى، التي تمتلك أكبر قوة اقتصادية وعسكرية في العالم دون منازع، ستضرب في عقر دارها ضربة مدوية ستتركها في أزمة سياسية واقتصادية وأمنية وعسكرية من حينها.

ولهذا كان لا بد بعد مرور عام على ذكرى غزوة 11 سبتمبر من النظر مجددا في العديد من خلفياتها وعبرها وآثارها، حتى تكون نبراسا للجميع في سعيهم لاسترجاع العز الإسلامي المفقود.

1 - الخلفية التاريخية

كان الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي على أرض أفغانستان مناسبة لا مثيل لها لصقل الأفكار الجهادية ونقلها لأرض التطبيق، خاصة وأن هذا الجهاد جاء بعد عقود عجاف من اضمحلال حضور الإسلام على كافة الأصعدة، وطغيان الأيديولوجيات المستوردة من الشرق والغرب، وتمكن العلمانية والتغريب من مقاليد الحكم في كل البقاع الإسلامية تقريبا. صحيح أن العالم الإسلامي كان قد شهد جهادا ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والإسباني والهولندي، لكن العناصر الإسلامية لم تتمكن آنذاك من فرض طرحها أمام سيول المنبهرين بالغرب والشرق، ولا سيما أن أيادي الاستعمار كانت تشجع هذه العناصر، خفية تارة وعلنا تارة أخرى، لتيقنها بالتبعية المخلصة لهذه الأطراف للاستعمار وتحقيقها لمصالحه.

على أي حال جاءت مناسبة الجهاد الأفغاني الأول لينتهزها بعض الدعاة الربانيين والرجال المخلصين ليوقظوا همم المسلمين. وما أن جاء عام 1984 حتى بدأت تظهر نماذج العمل المؤسسي لجهاد العرب في أفغانستان كبيت الأنصار الذي أسسه الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله، ومكتب الخدمات الذي أسسه الشيخ عبد الله عزام رحمه الله. فلقد تأسس بيت الأنصار في بيشاور ليكون محطة استقبال مؤقت للقادمين للجهاد قبل توجههم للتدريب ومن ثم المساهمة في الجهاد. كما أدى تأسيس مكتب الخدمات إلى تحسين الأداء على الصعيد الإعلامي وجمع التبرعات وحث المسلمين وخاصة العرب على الجهاد بالنفس والمال.

ولم تكد تحل سنة 1986 حتى قرر الشيخ أسامة بن لادن أن يتوسع في تنظيم العملية الجهادية وأن يُكَوِّنَ معسكراته وخطوط إمداداته. وفعلا تمكن الشيخ أسامة من إعداد ستة معسكرات وتمكن من خلال خبرته في

الإنشاءات من تحريكها ونقلها أكثر من مرة تبعا لظروف الحرب. وبدأت سمعة أسامة تسري بين المجاهدين العرب وبدأ يتقاطر على بيت الأنصار والمعسكرات عدد هائل منهم. وبدأ المجاهدون العرب يشاركون في مناوشات عديدة مع السوفييت وعملائهم، ثم ما لبثوا أن دخلوا في معارك طاحنة كان أشهرها معركة جاجي في نهاية ذلك العام، والتي هزم فيها المجاهدون العرب إحدى أفضل وحدات الروس تدريبا وتسليحا وقتلوا فيها عددا كبيرا من الكوماندس الروس.

ومنذ السنوات الأولى ظهر الطموح العالمي للمجاهدين، فقد كانت المساعدات الزائدة عن الحاجة في أفغانستان، تعطى للمجاهدين في بقاع الله الأخرى، ككشمير والفلبين وتاجيكستان الخ. لكن ما أن اجتاح العراق الكويت، واستعان النظام السعودي بالكفرة الأنجاس للدفاع عن أراضيه، حتى تبين لقادة المجاهدين أن الجهاد الأعظم مقبل مع أمريكا، خاصة بعد أن دكت أمريكا وتد استعمارها ليطال أشرف بقاع المسلمين على الإطلاق، ولعلمهم المسبق بأن أمريكا إذا وضعت قاعدة في بلاد لا تخرج منها أبدا إلا مرغمة.

جاء التدخل الأمريكي في الصومال ليعطي المجاهدين الفرصة للاحتكاك بأعدائهم الجدد، فقامت مجموعة صغيرة من قدماء أفغانستان بعدد من العمليات النوعية ضد الأمريكيين في الصومال، اضطرت على إثرها أمريكا للانسحاب. أما في اليمن فقد قتل عدد من الأمريكيين في أحد الفنادق في عدن حينما كانوا في طريقهم إلى الصومال. وفي كلتي الحالتين خرج المجاهدون مقتنعين بهشاشة الجندي الأمريكي وجبنه، وأنه لولا التفوق التكنولوجي والوسائل اللوجيستيكية المتطورة لأمريكا لما قامت لها قائمة على وجه الأرض.

ثم بدأ الشباب الجهادي سلسلة عملياتهم النوعية ضد الوجود الأمريكي على أرض الجزيرة، ابتداء بانفجار الرياض ثم تلاه انفجار الخبر في يونيو 1996، والذي أودى بحياة عشرين من العسكريين الأمريكان وجرح مئات آخرين. وبعد انفجار الخبر بفترة بسيطة أصدر الشيخ أسامة بن لادن بيانه الأول بعنوان "إعلان الجهاد لإخراج الكفار من جزيرة العرب"، وهو أول بيان يصدر عنه بشكل شخصي وباسمه. وفي نهاية عام 1997 استصدر الشيخ أسامة فتوى من حوالي أربعين عالما من علماء أفغانستان وباكستان تؤيد بيانه لإخراج القوات الكافرة من جزيرة العرب.

بالموازاة مع هذا التحرك، تجمع عدد من قيادات الجماعات الإسلامية وخاصة جماعة الجهاد المصرية في أفغانستان، وتقاطر عدد كبير من الوفود من باكستان وكشمير وبنغلادش على ضيافة الشيخ أسامة. وأثمر هذا التحرك إعلان بيان الجبهة الإسلامية العالمية في فبراير عام 1998 الذي يدعو إلى قتل الأمريكان واليهود في كل مكان وزمان. وقع البيان مع الشيخ أسامة بن لادن أمير جماعة الجهاد المصرية الدكتور أيمن الظواهري، ورفاعي طه أحد مسئولي الجماعة الإسلامية المصرية، كما وقعه رئيس أحد الفصائل الكشميرية وأحد القيادات الباكستانية المشهورة. وبعد إعلان بيان الجبهة الإسلامية العالمية بقليل صرح بن لادن بأنه سيضرب خلال أسابيع، وبقي الأمريكيون في حالة ترقب في المنطقة العربية والخليج وإلى حد القرن الأفريقي. وبينما هم في كامل التأهب أتتهم الضربة في الموقع الذي لم يتحسبوا له، سفاراتهم في كينيا وتنزانيا وذلك حين نسفت السفارتين شاحنتان ممتلئتان بالمتفجرات يوم السابع من أغسطس 1998.

وقد أثبتت العناصر الجهادية من خلال العمليتين أن لديها القدرة اللوجستية والفنية والبشرية على تنفيذ مهمات خاصة ومعقدة، وأنها استطاعت استغلال عنصر المفاجأة إلى أقصاه، كما أنها استطاعت كذلك التنسيق بين الحادثتين وبكمية تدمير هائلة. وكرد فعل قام الأمريكيون بعمليتهم المشهورة في ضرب السودان وأفغانستان، حيث انهالت على السودان وأفغانستان عشرات صواريخ كروز موجهة لضرب هدفين محددين في السودان وأفغانستان. لكن هذه الضربة الأمريكية لم تكن موفقة البتة لا من حيث نوعية الهدف ولا من حيث الطريقة.

وجاءت العملية الاستشهادية ضد المدمرة كول في ميناء عدن في أكتوبر 2000 لتزيد من غيظ الأمريكيين وأتباعهم في المنطقة، فقد تمكن أحد العناصر الجهادية من إلحاق أضرار قاتلة بالمدمرة الأميركية المزودة بأفضل التكنولوجيا الحربية، وتبلغ حمولتها 8600 طن، وتنقل طاقما من 350 شخص، ويبلغ ثمنها ما يزيد على بليون دولار. وقد تمكن المجاهد من إحداث فجوة فيها يتراوح قطرها بين ستة أمتار و12 مترا وسبَّبَ أضرارا فادحة في داخلها، قتل على إثره في الانفجار 17 من البحارة الأميركيين وجرح أكثر من ثلاثين آخرين. كل هذا بواسطة قارب مزود بمحرك جرار زراعي ومملوء بالمتفجرات في عملية لم تزد تكلفتها على العشرة آلاف دولار. وأبرزت هذه العملية ضعف الأمريكيين أمام الابتكار والتنويع في العمليات والمسارح، وأن المقاومة لغطرستها ممكنة بوسائل محدودة إذا توفرت الإرادة لذلك. تعاملت الإدارة الأمريكية إعلاميا بشكل مختلف مع العملية في حرص منها لئلا تزيد من شعبية الشيخ بن لادن، لكن ورغم ذلك صار الشيخ بن لادن رمزا في المنطقة العربية برمتها، ولا أدل على ذلك من رفع اللافتات باسمه في الانتفاضة الفلسطينية لأول مرة بعد عملية المدمرة كول.

ويمكن القول أن تنظيم القاعدة كان يمتلك منذ البداية نظرة استراتيجية ثاقبة، فلذلك سعى لإقامة العلاقات مع كل الحركات الجهادية عبر العالم، وهي علاقات أخذت وقتا وجهدا لا يستهان به من أجل بناء الثقة وإقامة تعاون متين على أرضية صلبة.

كما أن هذا التنظيم ونظرا لدراسته بعمق للتجارب الإسلامية والجهادية منها على وجه خاص، ركز منذ البداية على الجوانب التنظيمية والأمنية لمنع كل أشكال الاختراق، وهذا مما أفاده بشكل كبير لإدارة الصراع مع أمريكا منذ بداية التسعينات. ولهذا يستغرب المرء بشدة لما يجد أن أعتى الاستخبارات الغربية تقدر أعداد المجاهدين المتدربين في معسكرات تنظيم القاعدة (في سنوات 1989-2001) بين 10000 و110000 وهو فرق في التقدير شديد الضخامة، مما يبين أن هذا ليس تقديرا وإنما تكهن ليس إلا.

2 – تنظيم القاعدة وإعداد غزوة 11 سبتمبر

أ – إعداد المجاهد

مما لا شك فيه أن تنظيم القاعدة ركز تركيزا خاصا على تكوين الطليعة المجاهدة التي هي عماد العمل الجهادي وركنه الأول، ولذلك كانت النتائج باهرة على جميع الأصعدة. ولهذا يمكن القول بأن المجاهد

المتوسط من تنظيم القاعدة هو أفضل تدريبا وإعدادا واستعدادا لمهمته مقارنة بأي مقاتل غوار آخر على الإطلاق.

من الناحية النظرية لم يأل تنظيم القاعدة جهدا في إرساء وتثبيت مختلف النظريات العسكرية اللازمة لتطوير القدرات الجهادية. فالموسوعة الجهادية الشاملة[1] التي هيأها التنظيم لكل المجاهدين أيام الجهاد الأفغاني الأول وعمت كل تفاصيل العمل المسلح، كانت سابقة نوعية منذ ذلك الوقت. فهي عبارة عن حوالي 7000 صفحة (10 مجلدات) وبذلك تعتبر جهدا منقطع النظير في تهييء المجاهد لمشاق طريق الجهاد. وتشمل المواضيع المطروحة التكتيك العسكري، الأمن والاستخبارات، السلاح الخفيف، الإسعافات الأولية، المتفجرات، القنابل اليدوية والألغام، الدروع ، تصنيع السلاح، الطوبوغرافيا الخ.

وبعد الجهاد الأفغاني الأول وأمام التحديات الكبيرة التي واجهتها الأمة الإسلامية على مسارح الحرب المختلفة (فلسطين - وسط آسيا – البلقان – القوقاز – كشمي - الفلبين الخ)، والتي كان لا بد لتنظيم القاعدة حامل راية المشروع الجهادي العالمي أن يتعامل معها، أضاف التنظيم أسسا نظرية جديدة لتحسين القدرات التدريبية والقتالية للمجاهدين. فقد تم إصدار جزء آخر خاص بالعمليات الخاصة، وفيها أبواب تهتم بإعداد أوراق الهوية، تنظيم القواعد العسكرية، البنايات السكنية، إخفاء وسائل الاتصالات والمواصلات، شراء وإيصال الأسلحة، سلامة الأعضاء، الخطط الأمنية الخ.

وكانت معسكرات التدريب مناسبة لتدريب الفعاليات الجهادية على أحسن وجه ممكن لمواجهة الطغيان. وقد قسمت الدورات التدريبية على ثلاث دورات أساسية ومتقدمة ومتخصصة. وإذا كانت الدورات التدريبية قد تم تقديمها لعشرات الآلاف المجاهدين، تقربا لله ونصرة لدينه والمستضعفين في الأرض، دون أن تكون هناك بالضرورة علاقة تنظيمية بتنظيم القاعدة، فإن جزءا فقط من هؤلاء هو الذي تم مفاتحتهم حول الانضمام لتنظيم القاعدة بناء على استعدادهم الإيماني وقدراتهم العقلية والنفسية والبدنية. وكان هذا الإجراء كفيلا ليس فقط بمنع الاختراق، إذ لم تستطع أي جهة مهما كانت قدراتها وإمكانياتها من اختراق التنظيم، نظرا لأن العضوية فيه لا يأخذها الفرد متى شاء، وإنما تُمنح من لدن القيادة وفق معطيات دقيقة كثيرة. وهذا ما سمح كذلك لتنظيم القاعدة بتجنيد زبدة النخبة من الفعاليات الجهادية مما انعكس إيجابا على العمل الجهادي لتنظيم القاعدة منذئذ.

ولهذا لم يكن مفاجئا قط قيام أبطال سبتمبر بعمليتهم الخارقة، بالنظر إلى التراكم المعلوماتي والتجريبي لدى تنظيم القاعدة. فالتاريخ يشهد أنه لم ينكص أحد من هؤلاء الأفذاذ على عقبيه أو يتراجع في الرحلة نحو الموت المحقق. ومع أن التحقيق الذي قادته الاستخبارات الأمريكية يبين أن الجزء الأكبر من المنفذين لم يتلق تدريبا في معسكرات تنظيم القاعدة، إلا أن الإعداد الإيماني القوي الذي ركز معاني التفاني والإتقان

---

[1] لقد تمكنت بعض الأجهزة العربية والأسيوية من الحصول على أجزاء متناثرة من الموسوعة منذ سنة 1997، لكن الأجهزة الأمنية البلجيكية كانت الأولى التي تمكنت من العثور على نسخة كاملة لكنها لم تتوفر على الإمكانيات المادية لترجمتها. ولم تحصل C.I.A على نسخة كاملة إلا بعد أن سلمتها إياها المخابرات الأردنية العميلة.

والتضحية، ثم القيادة الراشدة الفعالة لرؤساء المجموعات – والذين تلقوا التدريب اللازم في أفغانستان حسب بعض التقارير– مكنت من تفعيل الطاقات الكامنة لدى كل الأفراد المختارين لهذه العملية المحورية في تاريخ الأمة الإسلامية.

ب – إعداد الوسائل المادية اللازمة

لقد كان بعض قادة الجيوش يقولون "المال هو عصب الحرب". وهذه المقولة ازدادت صلاحيتها مع مرور الوقت حيث تطورت الحياة وتعقدت تكاليفها بشكل غير مسبوق. ولا يخرج العمل الجهادي عن هذه القاعدة ، فكل عملية جهادية منظمة وذات آثار تحتاج إلى تمويل مادي سخي. وغالبا ما يحتاج هذا الأمر إلى شهور بل إلى سنوات من التحضير حتى يتم العمل بشكل هادئ لا يثير شكوك العدو. وقد فطن تنظيم القاعدة لهذا الأمر مبكرا، ولذلك أعد عبر السنين شبكة مالية معقدة لتمويل احتياجات التنظيم، وهو ما جعل العديد من الباحثين المقتدرين يجزمون أنه لم يسبق لا في تاريخ الاستخبارات الأمريكية C.I.A ولا الاستخبارات البريطانية M.I.6، أن واجهتا شبكة مالية عالمية معقدة كالتي بناها تنظيم القاعدة. والذي يزيد من تعقيد الأمر على الاستخبارات المعادية أن الشبكة مقسمة إلى أجزاء عديدة لا يربط بين بعضها البعض سوى خيوط رقيقة في أغلب الأحيان.

وحسب تقارير المعاهد الاستراتيجية المتوفرة فإن تقييم احتياجات تنظيم القاعدة لتسيير التداريب والاحتياجات العملياتية في أفغانستان وخارجها قد يكون في حدود 50 مليون دولار سنويا. وإذا كان هذا التقييم صحيحا فلا غرابة إذن في أن يضم التنظيم العديد من المختصين الماليين، ويولي اهتماما كبيرا للتدبير في مجالات المال والأعمال، ويقوم بجهود كبيرة في مجال الاستثمار عبر القارات.

ورغم ذلك فإن مجاهدي غزوة 11 سبتمبر أثبتوا مدى زهدهم، فقد تعاملوا بالروية مع إمكانيات المادية للتنظيم، خاصة فيما يتعلق باحتياجاتهم الخاصة. فقد كانوا لا يذهبون إلا إلى الفنادق والمطاعم الاقتصادية، ولا يستعملون إلا السيارات رخيصة الثمن، بل وأرجعوا ما تبقى من أموال إلى التنظيم، في إخلاص وتفاني لا مثيل له في عالم العولمة المادية وعبادة المال. لكن ما أن كان صرف الأموال ضروريا في خدمة العملية، حتى قام هؤلاء المجاهدون باقتناء تذاكر سفر درجة أولى، ليكونوا أقرب إلى مقصورة القيادة. وهذا ما يبين قمة الفعالية والاتزان لدى هؤلاء الأبطال.

لكن هناك من الباحثين من لا يرى أن القدرات المالية للتنظيم ضخمة كما تصفها التقارير، فالعمليات التي استهدفت سفارتي أمريكا في نيروبي ودار السلام لم تحتاجا لتمويل كبير، أما العمليات التي كانت ستعصف بمطار لوس أنجليس وكذلك التي كانت ستصيب فنادق المجون الصهيوني والأمريكي في الأردن، فكانت ممولة عبر أعمال مسلحة وغير مسلحة قام بها المجاهدون في كلتي الحالتين. كما أن عملية المدمرة كول قد كلفت أقل من 10000 دولار أمريكي، وهذا ما يبين أن تنظيم القاعدة لا يحبذ الإسراف المبالغ فيه إذا توفرت شروط النجاح للعملية، بل يضع الدينار المناسب في المكان المناسب، دون إسراف ولا تقتير.

ج – التخطيط

من الواضح أن تنظيم القاعدة يهتم كثيرا بالتخطيط لكل تفاصيل العمليات التي يقوم بها. وقد اعترف كل الباحثين بأن أحد عوامل القوة التي أظهرها تنظيم القاعدة هو استثمار جهود عملاقة في التخطيط والإعداد لكل العمليات. ففي سعيه لمزيد من الفاعلية كان التنظيم يقسم أي عملية على ثلاث مراحل: جمع المعلومات، الإعداد اللوجيستي، التنفيذ. وتقوم كل مجموعة على حدة بتنفيذ المرحلة التي تختص بها. وتعتبر مرحلة جمع المعلومات حساسة للغاية، ولذلك فإن تنظيم القاعدة يعطيها ما يلزمها من عناية وصبر، وقد اتضح ذلك بجلاء في غزوتي نيويورك وواشنطن، اللتين استغرقتا سنة ونصف من التخطيط والإعداد.

3 – العبر المستفادة من الغزوة

فيما يخص تنظيم القاعدة:

- استطاع تنظيم القاعدة –كونه يعمل بالسنن الشرعية والكونية– أن يشكل تهديدا لأكبر قوة في العالم رغم الفرق الشاسع في الإمكانيات. ومن أهم السنن الكونية التي أخذ بها هذا التنظيم إلى جانب الإعداد المادي والعسكري، تركيزه على تأسيس بنية تنظيمية قوية لا تفت في عضدها الضربات المتتالية والتتبع الأمني العالمي. ويمكن القول أن التنظيم الشبكي المعقد والعقلية اللا مركزية ومفهوم الجامعة الجهادية، كلها عوامل ساهمت في نجاح القاعدة على امتصاص كل الضربات المعادية والتقليل من تأثيرها إلى أقل حد. كما أن عامل السرية والأخذ بالتدابير الأمنية في كل الحالات والأوقات يعتبر عاملا مهما يجدر الاقتداء به من طرف الحركات الإسلامية الأخرى.
- إن تنظيم القاعدة يمشي وفق استراتيجية واضحة لا غبار عليها. لقد كان استهداف أمريكا منذ البداية خيارا استراتيجيا ذكيا، وذلك لأن الصراع مع أذناب أمريكا في المنطقة الإسلامية بين أن هؤلاء الأذناب لا يستطيعون البقاء دقيقة واحدة في حكمهم الطاغوتي دون مساندة أمريكا. فلماذا الانشغال مع الأطراف ما دام بسقوط الرأس يتداعى الباقي. كما أن خيار استهداف أمريكا مفهوم ومقبول على طول الأمة الإسلامية وعرضها لعلم الجميع بما اقترفته أمريكا من جرائم في حق الإسلام والمسلمين، وهذا ما يضمن التعاطف والتأييد الشعبي.
- إن قادة التنظيم استعدوا منذ البداية لكل الاحتمالات – وخاصة الأكثر سوءا – وهيئوا البدائل المناسبة. فسواء تعلق الأمر بالحرب داخل أفغانستان حيث تم سحب التشكيلات المقاتلة بطريقة ذكية، وتم إخلاء المعدات وتخزينها في الجبال، والتهييء لحرب عصابات طويلة الأمد. وسواء على الصعيد الخارجي حيث تفرقت الخلايا الجهادية بين الأمم، بحيث تتهيأ كل خلية لأداء مهمتها وفق مخطط دقيق، لا مجال فيه للارتجال والارتباك. وقد أثمر نجاح التخطيط الجهادي عن قذف الرعب الهائل في قلوب الأمريكيين كل يوم وحين، حيث الإنذارات بوشوك هجمة جهادية تتوالى بوتيرة قاتلة لأعصاب الجمهور الأمريكي، الذي لم يفهم لماذا فشلت آلته العسكرية الضخمة في إيقاف هذه الاعتداءات.

- لقد سطر تنظيم القاعدة بهذه الغزوة نموذجا لما يجب أن تكون عليه النفسية الإسلامية الأبية. فهذه النفسية لا تعرف شيئا اسمه مستحيل. كما أن التنظيم باعتماده على مبدأ المبادرة والفعل بدلا من رد الفعل، وإعداد الخطوة التالية قبل أن ينهي الخطوة الحالية، دون الانجرار إلى رد فعل يربك خطته، أعطى نموذجا لما يجب أن تكون عليه الحركات الإسلامية الأخرى.
- شكلت التربية الإسلامية الجهادية التي تجمع بين الانضباط والطاعة للقيادة والثقة المطلقة بتوفيق الله والاستعداد الكامل للموت في سبيل الله والصبر وطول النفس، أسس صفات المجاهدين من تنظيم القاعدة، وهي صفات ستؤدي إلى النصر دون شك بإذن الله.
- جسد تنظيم القاعدة وحدة الإسلام، فقد امتزجت دماء أبناء الأمة الإسلامية قاطبة في العمل الجهادي الذي يقوده هذا التنظيم، دون فرق بين عربي ولا عجمي. وهذا في حد ذاته لبنة على طريق الوحدة الإسلامية وتحطيم أوثان الاتفاقيات الاستعمارية التي نهشت جسم الأمة الإسلامية نهشا.
- "احفظ الله يحفظك" حديث نبوي شريف طبقه مجاهدو القاعدة، فرأوا تجلياته على أرض الواقع. فكم قصفت أمريكا الجبال الأفغانية بهيستيريا، واستعملت في ذلك كل قنابلها المحرمة دوليا، حارقها وسامِّها، ذكيها وغبيها، ومع ذلك لم يفت ذلك في عضد المجاهدين شيئا... وسبحان الحفيظ العليم.

فيما يخص أمريكا:

- لأول مرة تشعر أمريكا بتهديد مباشر لكيانها – وليس لمصالحها فقط – منذ أن كان الاتحاد السوفييتي في أوج قوته. والعجيب هذه المرة أن التهديد ليس قادما من دولة قوية أو تحالف جبار، إنما جاء التهديد من منظمة لا تمتلك مقومات القوة التي قد تمتلكها الدول العتيدة. ومع ذلك اضطرت أمريكا لحشد التحالفات الدولية بدءا بحلف الناتو الذي أعلن لجوءه للنص الخامس من قانونه الأساسي، والذي يعني أن كل الدول المنضوية في الحلف مستهدفة ما دامت إحداها تعرضت للهجوم. كما أن أمريكا ركزت على حلفائها التقليديين (الكيان الصهيوني- اليابان – كوريا – أستراليا الخ.) لتقديم كل المساعدات اللازمة للقضاء على تنظيم القاعدة، بل ولجأت كذلك إلى قوى معادية تقليديا كروسيا والصين لفعل كل ما يمكنهم فعله من أجل مساعدة أمريكا. وإن المرء لا يملك إلا أن يقف إجلالا للقوة الربانية التي تنصر المجاهدين في سبيل الله، فهذا الحشد الرهيب – الذي لا تحتاجه أمريكا أصلا بسبب قوتها الجبارة – كفيل بأن يدمر كل ما يتحرك على وجه الأرض، ومع ذلك لم تتمكن أمريكا من النيل من المجاهدين. وبعد مرور عام على إصابتها في مقتل، لم تشف أمريكا غليلها بعد، ولذلك فهي تبحث عن انتصارات حقيقية أو وهمية على أعداء ربما لا ناقة لهم ولا جمل، تقنع بها نفسها وحلفاءها بأنها لا زالت قوة عظمى.
- عند أول أزمة حقيقية تعرضت لها أمريكا ممثلة في أحداث سبتمبر، أضحت أمريكا مضرب المثل في مخالفة الشعارات التي تحملها كاحترام الحريات وحقوق الإنسان. فهذا معتقل غوانتانامو – الذي أرادت به أمريكا إرهاب المسلمين – شكّلَ أكبر وصمة عار في جبين "الديموقراطية" الأمريكية. كما أن الاعتقالات

الظالمة التي طالت اللآلاف من أبناء الجاليات المسلمة في أمريكا، والتي تم فيها تجاوز أبسط الحقوق المدنية للمعتقلين، لطخ إلى الأبد الصورة الوردية التي تصورها أمريكا عن نفسها. فالاعتقال دون تهمة محددة، وإخفاء أسماء المعتقلين، وممارسة كل أنواع الضغوط والتعذيب، والادعاء بغير دليل، ومراقبة التليفونات والبريد الإلكتروني بصورة واسعة، والكشف عن الحسابات الفردية في البنوك وغيرها من الإجراءات الاستثنائية، وتشكيل محاكم عسكرية سرية، يحق للرئيس فقط تحديد من يحاكم أمامها، على أن تكون كل إجراءاتها سرية، ولا يحق للمتهمين أن يستأنفوا أحكامها (وضمنها الإعدام) صار هو النموذج الأمريكي للعدالة.

- لقد كانت غزوة 11 سبتمبر نموذجا في بيان إخفاق الأجهزة الاستخباراتية الأمريكية، التي كان يرتعد لذكرها فرائص الكثيرين فيما سبق. فأمريكا لم تستفد لا من منظومة المراقبة عبر الأقمار الصناعية إشلون (تضم 120 قمرا صناعيا تجسسيا وكلفت ملايير الدولارات)، ولا من الوكالات التجسسية الأمريكية الثلاثة عشر ذات الميزانيات الضخمة، في إيقاف 19 مجاهدا مسلحين بسكاكين، والذين استعملوا أدوات الخصم في الإجهاز على معالمه الاقتصادية والعسكرية.
- استراتيجيا دمر تنظيم القاعدة بغزوة 11 سبتمبر ركائز الاستراتيجية الدفاعية الأمريكية، والتي لم يستطع الاتحاد السوفييتي السابق ولا أية دولة معادية النيل منها. وهذه الركائز هي: الإنذار المبكر، الهجوم الوقائي ومبدأ الردع. كما سببت هذه الغزوة تمططا كبيرا لقدرات أمريكا التي اضطرت لنشر قواتها في مسارح كثيرة دون أن تحرز النصر في أي منها. من ناحية أخرى بينت الغزوة أن أمريكا تعاني من أزمة استراتيجية بعد انتهاء الحرب الباردة، بمعنى أنه لم يعد لديها استراتيجية واضحة وكاملة وذات هدف واحد كما كان الحال إبان الحرب الباردة، ومن ثم فهي تتعامل مع كل طرف وفق استراتيجية مفتوحة قائمة على التجريب أكثر منها قياماً على الرؤية المستقبلية. ولعل من أسباب ذلك أنها تواجه عدواً هلامياً وعقدياً، يصعب ضربه أو اختراقه، ويمكن أن يتشكل في صور مزعجة ودون إمكان رصده.
- عسكريا شكلت غزوة 11 سبتمبر أكبر تهديد للوضع العسكري الأمريكي القائم. فالاستراتيجية غير المتوازية (Asymmetric) الذي ينتهجها تنظيم القاعدة، والتي تقضي بأن يستخدم الخصم وسائل وأساليب يستحيل على المدافع عن نفسه أن يستخدمها أو يتعرف عليها أو يتفاداها، جعلت التفوق العسكري الهائل لأمريكا دون فائدة، مما قلل من فاعلية الردع العسكري الأمريكي دوليا. كما أن انتشار سلاح القنبلة الاستشهادية، وكونها لم تعد قاصرة على فلسطين بل انتقلت إلى أهداف أمريكية أربك الحسابات الأمريكية وجعل الإحساس الأمريكي بالأمن يتبخر.
- إعلاميا فشلت أمريكا في تسويق حملتها الصليبية. فالآلة الدعائية الأمريكية لم تتمكن من هزم مشاعر الكراهية لأمريكا، بل و لم تبدد حتى الشكوك الأمريكية الداخلية. إن ضخامة الآلة الدعائية الغربية لم تمنع هزيمتها على يد الشيخ أسامة فيما يشبه حركة جودو. فكاميرات C.N.N وغيرها من ديناصورات الإعلام الأمريكي هي التي تكفلت بالإشهار للغزوة وبث الرعب المرجو منها، دون أن يكلف ذلك تنظيم القاعدة

مليما واحدا. كما أن أشرطة "الرعب" التي أذاعتها C.N.N مؤخرا، زادت من تبيان القدرات التي يملكها المجاهدون وتمكينهم من قلوب أبناء الأمة الإسلامية. أما أشرطة الفيديو للشيخ أسامة وغيره من القياديين، والتي انفردت بها قناة الجزيرة وجلبت لها الشهرة الدولية، فقد ضمنت نقل صوت المجاهدين للأمة الإسلامية والعالم بأسره دون كلفة تذكر مقابل خدمة لا تقدر بثمن. وللمفارقة تجدر الإشارة أن العديد من المنظمات الثورية قامت في الماضي بعمليات خطف للرهائن فقط من أجل إذاعة بيان لها، بينما اليوم تتسابق كل وسائل الإعلام الدولية على نيل السبق في نشر ما يقوله المجاهدون. كما تم توظيف الإنترنت من قِبَلِ المجاهدين بشكل فعال لإيصال صوتهم ووجهات نظرهم لمئات الآلاف من المسلمين.

4- الآثار المرحلية والمستقبلية

- إن غزوة 11 سبتمبر تؤرخ لبداية انهيار الإمبراطورية الأمريكية. فقد أثبتت الضربات على أن أسس القوة الأمريكية من الهشاشة بمكان، وذلك أن الاقتصاد وهو أهم هذه الأسس قائم على أسس ربوية كاذبة خاطئة وعلى الاستهلاك الشره، الذي متى توقف تضرر الاقتصاد. ونظرا للانعكاس النفسي الكبير لهذه الغزوة على الجمهور الأمريكي، فإن أنماط الاستهلاك تغيرت وازدادت الخسائر المتعلقة بقطاعات الطيران والسياحة والتأمينات لتضفي ضلالا من الشك على صحة الاقتصاد الأمريكي. ويكفي معرفة أن الخسائر الاقتصادية للولايات المتحدة (المتعلقة بقطاع الطيران فقط) عقب الأحداث بلغت 100 مليار دولار إضافة إلى إلغاء ما يقارب من 100 ألف وظيفة، ثم الخسائر الأخرى التي بلغت بمجموعها تريليون دولار وتسببت في فصل مئات الآلاف من الأمريكيين عن عملهم، لإدراك هول الضربة وتأريخها للبداية الفعلية للانهيار الأمريكي.
- إن إفرازات الغزوة فيما يخص العلاقات الدولية شكلت زلزالا جيوسياسيا، ومن تجليات ذلك الزلزال:

- استفادة الولايات المتحدة الأمريكية من دخولها ساحة صراعها السابق مع السوفييت وخاصة الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفييتي السابق، وتكريس وجودها معززة قواعدها بشكل يوحي بالبقاء الطويل في تلك المنطقة. وهذا بالذات عامل سيزيد من فرص الاحتكاك مع روسيا والصين في المستقبل المنظور.

- اهتزاز التحالف الأوروبي ـــ الأمريكي، خاصة عندما حددت أمريكا أهدافها الحقيقية وهي «التدخل في الشؤون الداخلية لدول العالم الثالث»، بهدف رسم معالم عالمها الجديد أو إعادة أقلمة المناطق وفق مصالحها واستراتيجياتها.

- ظهور ملامح الانهيار على تحالف أمريكا مع السعودية وبدرجة أقل مع مصر. فلم يعد النظام السعودي الطفل المدلل لدى أمريكا، بل أصبح أقطاب هذا النظام ينعتون في الإعلام الأمريكي بالفساد والعبث بأموال شعبهم ودعم "التطرف". ويبدو أنها مقدمات للسيطرة المباشرة على شؤون الحكم في السعودية، بعدما لم تعد ديبلوماسية الشيكات التي كانت ينتهجها حكام السعودية كافية لإرضاء الأسياد في البيت الأبيض.

- تثبيت سيطرة أمريكا على أغلب المنافذ البحرية العالمية بحجة مطاردة الشيخ بن لادن ومنعه من الفرار، مما دفعها لترسيخ قواعدها في المحيطات والزيادة في العدة والعتاد هناك، وهي خطوة ستكلف واشنطن كثيرا عسكريا وماليا خاصة في ظل استمرار تدهور الاقتصاد الأمريكي.

- إن الغزوة أدت بأمريكا للاتجاه نحو الحكم العسكري، فللمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة يتم تشكيل قيادة عسكرية للإشراف على الأمن الداخلي، يرأسها جنرال. كما تم تشكيل حكومة سرية تعمل في موقعين حال تعرض الولايات المتحدة لهجوم عسكري مفاجئ، وتتولى إدارة الوظائف الحيوية، ولا رقيب عليها من جانب أي مؤسسة دستورية، وقد وضعت إدارة بوش هذا السيناريو في ظل غياب كامل للكونغرس، مع الإصرار على رفض أي معلومات حول خططه بشأن آليات تلك الحكومة. وهي خطوة تؤكد الاتجاه نحو حكم شمولي عسكري، وتشكل انهزاما ساحقا للقيم الأمريكية عند أول صدام. كما أن مطالبة الرئيس بوش بمنع التسريبات، أدت على الصعيد العملي إلى فرض ستار كثيف من السرية بعيدا عن الشفافية والمساءلة البرلمانية، وكانت الحصيلة عدم تحديد المسؤولية، أو حساب أي مسؤول عما حدث في 11 سبتمبر.

- لقد كانت طالبان حجرة عثرة أمام الأطماع الأمريكية في الاستحواذ على نفط بحر قزوين، لكن بإزاحة حكومة طالبان (مؤقتا إن شاء الله) وتأسيس حكومة عميلة في أفغانستان، أصبحت الساحة مهيأة لبناء أنابيب للنفط والغاز الطبيعي تربط بين بحر قزوين وتركيا وأوروبا. وهذا يعني أن الطلب على النفط العربي سينخفض بعد أن يصبح بترول بحر قزوين مطروحا في الأسواق. وعليه فقد كانت المساندة الرسمية الخليجية للحملة الصليبية خطأ فادحا ستتجلى آثاره على الاقتصاد الخليجي، بعد أن صار بالفعل تحت وطأة صدمة خارجية عنيفة سوف تدفع إلى خفض نمو الناتج المحلي لدول الخليج.

- لقد توافقت الغزوة مع ارتفاع حدة وموجة العداء الشعبي للولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت تمثل نموذج العالم الحر ونموذج القيم الديمقراطية. فقد التقى في هذه النقطة القوى الشعبية الإسلامية مع قوى أخرى في العالم لها مواقف مناهضة للولايات المتحدة الأمريكية. فموجات مناهضة العولمة/الأمركة بدأت تتسع، وظهر ذلك جليا في المظاهرات الكثيرة التي شهدتها أمريكا نفسها وكذلك أوروبا وجنوب أفريقيا، فهناك رفض شعبي حقيقي متعدد المشارب (مثقفون، مهتمون بالبيئة، معارضو الحروب) للسياسة الأمريكية. وما الصراخات والهتافات التي جابهت خطاب وزير الخارجية الأمـــريكي خـــلال قمة الأرض (02/09/04) إلا نموذجا للوعي الشعبي العالمي تجاه السياسات الأمريكية الظالمة.

- لقد تكثف الاهتمام بالإسلام على مدى السنة المنصرمة في كل أنحاء الأرض، وراجت الكتب الإسلامية، وخصوصا اقتناء نسخ المصحف الكريم. وهذا مما يبين أن نور الجهاد والتضحية من أجل الدين تحمل من القوة على إقناع الآخرين بما عليه المسلمون من الحق، أكثر من ملايين الكلمات والخطب.

لقد كانت غزوة 11 سبتمبر دون جدال عملية محورية في تاريخ الأمة الإسلامية. ويكفي أن الأمة كانت تعيش في براثن الذل بعد أن صار الممكن (تطبيق الشريعة الإسلامية - تحرير فلسطين الخ.) مستحيلا بسبب خيانة وعمالة الأنظمة العربية، لتأتي الغزوة فتحول المستحيل ممكنا.

المراجع:

- "قراءة لمستقبل المعركة بين فاروق العصر أسامة وأمريكا"، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية.
- "التقرير السنوي عن التغيرات الاستراتيجية الدولية التي أحدثتها اعتداءات 11 سبتمبر في الولايات المتحدة وعن إنتاج وتجارة السلاح في العالم"، معهد ستوكهولم لأبحاث السلام (SIPRI)، 06/2002
- العدالة في ميزان حرب الإرهاب الأمريكية، جريدة البيان الإماراتية، الأربعاء 20 محرم 1423 هـ الموافق 3 أبريل 2002
- Rohan Gunaratna, "Inside Al Qaeda: Global Network of Terror," Hurst&Company, London, 2002.
- Rohan Gunaratna, "The Lifeblood of Terrorist Organizations: Evolving Terrorist Financing Strategies" in Alex Schmid (ed.) Countering Terrorism Through International Cooperation, Rome, International Scientific and Professional Advisory Council of the UN and The UN Terrorism Prevention Branch, 2001.
- Victoria Grifith, Peter Speigl, and Hugo Williamson, "How the Hijackers Went Unnoticed", Financial Times, November 29, 2001
- Walden Bello, "Washington: Triumphant Or Overextended?" Focus Web, Jul 22/ 2002
- Steven Simon and Daniel Benjamin, 'The Terror', Survival, Volume 43 Number 4, January 2002
- David Cole, "Trading Liberty for Security after September 11," Foreign Policy in Focus, September 2002